

الاسلام بين الديانات

من الأمور السهلة اليسيرة على الكاتب الذى يبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان أن يقف عند هذه المسكاة دون لف ودوران ، ودون تأويلات وتخريجات ودون أن يحمل نفسه ويحمل قراءه معه مشقة الجدل وعسر الاستقصاءات لأن مكانة الاسلام بين الديانات المنزلة والديانات غير المنزلة ظاهرة ساطعة غاية فى الوضوح والجلال .

وإذا كان علماء مقارنة الأديان يقررون أن الأديان جميعها يجمعها رباط واحد وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيثار ورحمة للإنسان حتى أن الدوس هكسلى الفيلسوف الأنجليزى المتصوف يقرر فى كتابه الفلسفة الدائمة أن الأديان جميعها تهدف إلى تحقيق هذه الرحمة والإيثار للناس جميعا لأن الاسلام يقول (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) والمسيحية تقول (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) واليهودية تقول (لا توقع ما يؤذيك بالناس ذلك هو أب التوراة وبقية تعليمات) والبوذية تقول (لا تفرض على الناس ما يؤلمك) والكونفوشية تقول (لا تنزل بالناس ما لا تحب أن ينزلوه بك) والهندوسية تقول (لا تحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك) انتهى

واسكن ذلك كله لن يحملنا على أن نصدق أن الأديان جميعها صور مكررة فى جوهرها ومبادئها ومناهجها ودعواتها لشيء واحد لأن ذلك يقتضينا أن نلغى التاريخ وأن نلغى سنة التطور البشرى بل نلغى عقولنا فلا نستطيع أن نحكم فيما كانت تستسيغه البشرية وتهضمه فى طور من حياتها بعد طور آخر ومن تطور فى الوعى والادراك إلى تطور نحو المعرفة والنضوج العقلى .

وأصدق ما نقوله فى هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل عن مراحل

التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادئ ونظم وعقائد وآراء لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنباً إلى جنب مع المراحل التي كان يجتازها البشر في طريق تعقلهم وتحضرهم .

والقد اصطنعنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ في بحثنا عن كيفية تطور العقيدة في الإنسان في فصل سابق في هذا الكتاب وهو (هل الدين لازم للبشر) واستنتجنا معتمدين في ذلك على الأساطير وعلى التاريخ : إستنتجنا أن العقيدة كانت تتشكل في الإنسان وتتميز فيه مع مقدار ما بلغه من وعى ورقى وإدراك . وإذاً فلا مفر لنا عندما نبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان من أن نتعرض لدراسة البعثات التي أنزلت فيها هذه الديانات وأن نتدخل صفوها ونتعمق إلى أغوارها لاستظهر ما كان يسودها من تقاليد وعادات وأخلاق وما كان يختمر فيها من جرائم التقدم والرقى ، والتعطش إلى إدراك نواح جديدة من المعرفة الإنسان .

وإذا كنا سنشكلم في هذا الفصل عن مكانة الاسلام بين الأديان فليس علينا من حرج في أن نختصر الكلام على الديانة اليهودية والمسيحية فقط وذلك لسببين وجيهين (أولاً) لوفرة البيانات الوضعية وتشعبها وكثرتها كثرة ساحقة وعدم حصرها والامام بها جميعها لضيق أكثر أصورها ومعالمها ولأن واحدة من هذه الديانات لم يوترن بها كدين عالمى مثل الأديان الكتابية (ثانياً) لأن الاسلام دين سماوى ومقتضيات البحث تفرض علينا أن نقارنه بأديان سماوية حيث يتوفر التشابه والتكافؤ والعدل في ميزان المقارنة .

وعلى ضوء ذلك سنعرض أولاً لدراسة الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية ثم نقارنها بعد ذلك بالاسلام .

وأول شيء ينبغى أن نلاحظه عند دراسة الديانة اليهودية أنها أول ديانة كتابية نادت بالترحيب الصحيح . ولسكنها كانت مصطبغة بما كان يطغى على ضمير العالم حينذاك من حب للتعصب والسيطرة ومن إشادة بمبدأ الأثرة والانانية والقوة ونحو الانتقام .

وإذا كانت الديانة اليهودية تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام ومن بعده اسحاق ويعقوب ويوسف ومن دعوة هؤلاء جميعاً عبادة الله الواحد الأحد فإن ذلك لم يعصم اليهود من أن تتغلب عليهم نزعة عبادة الأوثان فعبدوا عجل الذهب في صحراء سيناء بعد أن استقدمهم يوسف إلى مصر وتكفل الوطنيون المصريون ضدهم واضطهدوهم حتى خرج بهم موسى عليه السلام إلى أرض سيناء وأرسله الله إليهم وأنزل عليه ألواح الوصايا العشر التي تعتبر زبدة التوراة .

والظاهرة العجيبة التي يراها الباحث في الديانة اليهودية أنها ديانة محلية قاصرة على بني إسرائيل وحدهم باعتبارهم كما يزعمون (شعب الله المختار) وأنها يسودها وتغلب عليها روح الحرب والبطش وسفك الدماء حتى وصفوا إليهم بما كان ينطبع في نفوسهم ويتحكم في عقولهم وأخلاقهم ونظرتهم للحياة من أنه غيور شديد المقت سريع الغضب متعطش إلى سفك الدماء .

وهذا يثبت لنا بوضوح ما ذهبنا إليه من أن الديانات تفسر على ضوء ما بلغته الأمة من وعى وتطور وإدراك .

وغاية ما نقوله في موضع دراسة الديانة اليهودية وفي البيئة التي بعثت فيها أن تشريعها ونظمها وتعاليمها التي دعت إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها لم تكن عامة للإنسانية جميعاً ليراعى فيها تعدد البيئات والجنسيات وسنة التطور والوعى العام وإنما كانت هذه التشريعات والتعاليم والنظم خاصة ببني إسرائيل وحدهم وهي صريحة في ذلك بكل الصراحة متعصبة من أجل ذلك كل التعصب .

والذي نلاحظه أيضاً أنها كانت بمثابة ارهاص لغيرها من الديانات الآتية لمعرفة التوحيد الصحيح وأنها كانت بمثابة فلسفة تقريرية تلون اتباعها بلون جديد وتوجههم نحو طريق مرسوم يحتاج إلى تكملة وإلى امتداد واتصال ولذلك ظل بنو إسرائيل ينتظرون ديانة أخرى تكمل ما بدموه وتوضح ما آمنوا به .

بل لذلك نرى أن هذه الديانة لم تنطبع في نفوسهم بطابعها الصحيح وإنما هم

قد عبدوا الاوثان بعد دعوة انبيائهم لهم بالتوحيد الصحيح ولم يخلصوا من عبادتها إلا حين بعث الله فيهم موسى عليه السلام وان كانت عبادتهم لله الواحد الاحد لم تستقم على وجهها الصحيح الذي دعاهم اليه موسى عليه السلام لانهم وصفوا الله بأوصاف ليست من دعوة نبيهم في شيء ولا تتفق مع وحدانيته سبحانه وتعالى فلقد وصفوه بما كان يتفق وإدراكهم ونظرتهم للحياة وما طبع في نفوسهم من حب للحرب والصراع والغيرة والانانية .

والذي هو جدير بالملاحظة بعد ذلك أن بني إسرائيل بعد أن استولت عليهم فكرة دخول أرض الميعاد والسيطرة على العالم لم يلبثوا أن دخلوا أرض الميعاد حتى نازع بعضهم بعضاً السلطان وحتى كاد بعضهم لبعض وقام بينهم صراع نبه إليهم المرطنين من الأمم الأخرى الذين يعمرون هذه الأرض فاتحدوا ضدهم وقامت بينهم حرب شديدة حتى استطاع طيطس في النهاية أن يغالِبهم على أمرهم وأن ينتقم منهم انتقاماً مرأقاسياً فعمل على تشتيتهم في جميع أنحاء الأرض ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة أبداً .
وقد جاء في مقدمة ابن خلدون ما يلي :-

وبقي بني إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهما نحو أربع مائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القسام به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العمامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورشليم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فخارتهم أمم الفاسطيين والكنعانيين والآراميين وأردن وعما ان وما رب ورئاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحو من أربع مائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك

وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلستين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهم واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة الأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولاً الأسباط العشرة ثم ثانياً بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصهاران وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للسكينة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في مملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم السكينة الذين كانوا فيهم من بني خشمناى وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بني خشمناى وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأخشروا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثانى المسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقيم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في مملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالسكوهن ،

ولقد تكلم الأستاذ محمد غلاب في كتابه (الفلسفة الشرقية) عن الديانة اليهودية متعرضاً لدراساتها مسهباً في شرح أغراضها وما كوّنته من فلسفة مقدارنا ذلك بما سبقها من فلسفات شرقية أخرى وبما أتى بعدها من ديانات سماوية كالدين الإسلامى مثلاً قال الأستاذ غلاب :-

« إن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام والتي اصطلاح المسيحيون على تسميتها بالعهد القديم وهى : سفر التكوين - وسفر الخروج - وسفر

الليفيين - وسفر العدد - وسفر التثنية .

ولقد أجمع المؤرخون على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار وإنما كتبت بعد موته بعدة قرون لا تعرف بالضبط كما لا يعرف كاتبها الحقيقي وقد ذهب بعضهم إلى أنه بدى فيها حوالى القرن الثامن أو السابع وأنها لم تتم إلا فى القرن الخامس وأن بعضها لهذا قد أصابه التأثير البابلى لأنه كتب بعد المنفى « ثم تابع الأستاذ غلاب كلامه فقال :-

« إذا تصفحنا الأسفار الموسوية الخمسة لم نجد فيها أثرًا لخلود النفس ولا للحياة الأخرى على النحو الذى نجده مثلاً فى القرآن يصور لنا (أن كل نفس بما كسبت رهينة وأن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فإن تعمل فى الدنيا مثقال ذرة من خير أو شر تره فى الآخرة مماثلاً لما عملته تماماً وإنما نرى جميع الموتى عند العبرانيين تكسب أشباحهم فى مكان مظلم سحق يطاق عليه اسم شؤول على نحو الجحيم العام الذى أشرنا إليه حين عرضنا للديانة الكلدانية وأدهى من ذلك أننا إذا تصفحنا الدعاء الذى وجهه الملك (إزيكياس) وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه (اشفىنى) لأنه ليس « شؤول » هو الذى يمدحك ولا الموتى هم الذين يثنون عليك فإن الذين ينزلون فى الحفرة لا يعتمدون على وفائك وإنما الأحياء هم وخدمهم الذى يمدحونك كما أفعل أنا اليوم .

ولا ريب أن هذا مصير سـاذج لا يتعلق مع تقدير الفرق بين الأخيار والشريرين ولا مع العدالة الإلهية التى ينبغى أن تثيب الأولين وتعاقب الآخرين على أفعالهم وهو - فوق ذلك - جانب نقص هام فى الفلسفة العبرانية يفقدها ناحية من أخطر نواحيها وينزلها إلى مصاف الفلسفات الأولية الساذجة .

ولقد جاء فى كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني وصف لليهود وتحقيق لما كانوا عليه ونحن نثبته فيما يلى (اليهود خلاصة هاد الرجل أى رجوع وتاب وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أى رجعنا وتضرعنا وهم أمة موسى وكتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء أعنى أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً وقد

ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله تعالى خالق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده ، فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب وقد اشتمل ذلك على أسفار فيذكر مبتدأ الخلق في السفر الأول ثم يذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص والمواعظ والأذكار في سفر سفر وأنزل عليه أيضاً الألواح على شبهة مختصر ما في التوراة يشتمل على الأقسام العلية والعملية قال عز ذكره (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة) إشارة إلى تمام القسم العلي وتفصيلاً لكل شيء إشارة إلى تمام القسم العملي .

قالوا كان موسى قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه من بعده ليفضى إلى أولاد هارون لأن الأمر كان مشتركاً بينهما وبين أخيه هارون إذ قال (واشركه في أمري) وكان هو الوصي فلما مات هارون في حياته انتقلت الوصاية إلى يوشع بن نون وديعة فليوملها إلى شبير وشبير ابني هارون قراراً وذلك أن الوصية والامامة بعضها مستقر وبعضها مستودع . واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى وتمت به فلم يكن قبله شريعة إلا حردد عقلية وأحكام مصاحية ولم يجوزوا النسخ أصلاً قالوا فلا يكون بعده شريعة أخرى لأن النسخ في الأوامر بداء ولا يجوز البداء على الله ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة وإحالتها أما النسخ فكما ذكرنا وأما التشبيه فلأنهم وجدوا التوراة ملئاً من التشابهات مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهراً والنزول عند طور سيناء إتيقلاً والاستواء على العرش استقراراً وجواز الرؤية فوقاً وغير ذلك وأما القليل بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام فالرأبانيون فيهم كالمعتزلة فينا والقراءون كالمجيرة والمشبهة وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين أحدهما حديث عزيز إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه والثاني حديث هارون عليه السلام إذ مات في القبة وقد نسبوا إلى موسى قتله . . . قالوا حسده لأن اليهود كانت إليه أميل منهم إلى موسى

واختلفوا في حال موته فمنهم من قال مات وسيرجع ومنهم من قال غاب وسيرجع واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى عليه السلام حقاً وكون صاحب الشريعة صادقاً بل ما حفره وغيره وبدلوه إما تحريفاً من حيث الكتابة والصورة وإما تحريفاً من حيث التفسير والتأويل وأظهرها ذكره إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل ودعاؤه في حقه وفي ذريته وإجابة الرب تعالى إياه « أنى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتي »

واليهود يعترفون بهذه القصة إلا أنهم يقولون أجابه بالملك دون النبوة والرسالة . وقد ألزمهم أن الملك الذي سلمتم أهو ملك بعدل وحق أم لا . فإن لم يكن بعدل وحق فكيف يمن على إبراهيم بملك في أولاده هو جور وظلم وإن سلمتم العدل والصدق من حيث الملك فالملك يجب أن يكون صادقاً على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ففي تكذيبه تجويزه وفي التجويز رفع المنة بالنعمة وذلك خلف .

ومن العجب أن في التوراة أن الأسباط من بني إسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بني اسماعيل ويعلمون أن في ذلك الشعب علماً لدنيا لم تشتمل التوراة عليه وورد في التواريخ أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون آل الله وأهل الله وأولاد إسرائيل آل يعقوب وآل موسى وآل هارون وذلك كسر عظيم .

وقد ورد في التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعان بفاران وساعير جبال بيت المقدس الذي كان مظهر عيسى عليه السلام وفاران جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية في الوحى والتنزيل والمجيء أشبه بالمبدأ والظهور بالوسط والاعلان بالكمال عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجيء على ظهور سيناء وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير وعن البلاغ إلى درجة

الكمال والاستواء بالإعلان على فاران وفي هذه الكلمة اثبات نبوة المسيح والمصطفى عليه السلام وقد قال المسيح في الانجيل (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر)

والشريعة الأخيرة (يعني شريعة الاسلام) وردت بالأميرين جميعاً أما القصاص ففي قوله تعالى (كتب عليكم القصاص) وأما العفو ففي قوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة وفي الانجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة وفي القرآن أحكام السياستين جميعاً وللكم في القصاص حياة ، إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة ، خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين ، إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة الخاصة وقد قال عليه السلام « هو أن تعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك » انتهى ولعلنا بعد ذلك نكون قد وفقنا إلى أن نعطيك صورة صحيحة عن الديانة اليهودية وعن الظروف التي أحاطت بها وعن البيئة التي نبتت فيها وعمّا اكتنفها بعد ذلك من عقائد ومبادئ في هذا القدر الضيق الذي سمح به الموضوع والذي سمحت به عدد صفحات الكتاب وليس يعني شيئاً بقدر ما يعني أن نعرف مكانة الإسلام من هذه الديانة . وأن نحاول أن نوجد مقارنة صحيحة لما بينهما من تشابه ولما بينهما من فروق واختلافات ولستنا سنجيء هذه المقارنة إلى أن نتحدث عن الديانة المسيحية وأن نلم بالبيئة التي احتضنتها وبالتطورات التي أتت نتيجة لها .

ظهرت المسيحية في أول أمرها ضعيفة مضطهدة ضئيلة الشأن وإن كان قد سبق ظهورها وجود فلسفة حية قوية اضطنعتها فلاسفة من اليهود تبحث في الروحانيات وتؤمن بحقيقتها ووجودها إلا أن وجود هذه الفلسفة لم تمكن من العوامل التي ساعدت على نشر دعوة المسيح الروحانية ولم تحل دون اضطهاده وتشهيت أتباعه وذلك لأن المسيح جاء يدعو بني إسرائيل إلى ديانة جديدة تخالف دياناتهم

العبرانية في الجهر والمظهر والروح وإن كانت لم تعمل على بطلانها قال المسيح لليهود (ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأنا أقول إذا لطمتك أخرجك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وقال لهم أيضاً (أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تحزن وأبوك السماوى يقوتها أليست أتم أحرى بالترفضيل عليها . من منكم إذا أهتم يستطيع أن يزيد على ما قدّر ذراعاً واحدة . تأملوا زنابقى الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لا يلبس كواحدة منها فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أتم يا قليلي الايمان)

وعلى هذا النمط من الايثار ومن الروحانية الصافية الخالصة كان المسيح يخاطب بنى إسرائيل وكان يحاول أن يلغى من نفوسهم الأثرة والانانية وحب الذات وهذا التعصب الأعمى حتى فى العبادة وحتى فى وصفهم للإله لانهم كانوا كما قال الاستاذ العقاد فى كتابه الله (كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب إلى دولة أجنبية قرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى) وكما قال أيضاً :-

« وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الانسان وحرركاته فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال وأنه دفن حينما مات فى موآب »

وكما قلنا فى أول هذا الفصل وفى الفصل الذى قبله من أنه ينبغى لمن يتعرض لدراسة الديانات ومراحل تطورها أن لا يغفل البتة عن مراحل التطور البشرى . كذلك . لان التطور فى الاثنين يسير جنباً لجنب فلا يكادان ينفصلان ولا يختلفان . . . ويصح لنا أن نقول هنا ان هذه الظاهرة فى وجود

الدعوة المسيحية محقة من غير شك لأنها جاءت عامة مصححة للدعوة اليهودية عاملة على ايجاد نوع من الارتباط والتعاون الانساني ونكران الذات وحب الائتلاف . فلقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس من الانانية . ومن المصالح الشخصية ومن حب المادة والتكالب عايم ابكافة الوسائل وبشتى السبل وكان العالم في طريقه نحو الرقي بل ~~كان~~ علماء اليهود أنفسهم يحسون بأنهم في حاجة شديدة إلى دعوة أخرى ترشدكم الى طريق الحق والى نسول السبيل .

ونزلت الديانة المسيحية بقوانين أخلاقية جديدة مخالفة كل المخالفة لأخلاق اليهود ونزعاتهم وتفكيرهم فآمن بها أول الأمر أقلية منهم شأن كل دعوة جديدة تخالف ما ألفه الناس من تقاليد وعادات وأخلاق ورثوها عن آباءهم وأجدادهم وإن كانت تحس في قرارة نفسها بأن الدعوة الجديدة حق وخير وصدق إلا أن الطبيعة البشرية من العسير عليها أن تنفض عن نفسها أثر العادات والتقاليد التي ورثتها عن آباءها وأجدادها ونشئت عليها من طفولتها وانطبعت في نفوسها وترعرعت وهي ترعاها وتعمل بمقتضاها .

نعم من العسير على الطبيعة البشرية أن تلغى كل ذلك طفرة واحدة وفي غمضة عين وانتباهتها وبمجرد وصول الدعوة إليها ومخاطبتها لها عن طريق العاطفة أو العقل وعندنا أكبر شاهد على ذلك وهو موقف عمر بن الخطاب من الاسلام في أول الأمر ومخاصمته له خصاماً عنيفاً شديداً وثورته عليه ثورة طاغية كان يخشاها كثير من المسلمين ثم موقفه منه بعد أن فهم الاسلام على حقيقته وآمن به واتبع هداه وكان أكبر سند له وأعظم مجتهد فيه وثاني الخلفاء الراشدين بعد النبي عليه السلام .

ولو تعمقنا في البحث في أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة في المظهر والمسالمة في الطبيعة لوجدناها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها وعمات على تحطيم قوانينها التربوية والأخلاقية التي اصططحت هليها أجيالا بعد أجيال وتهادت على العمل بها من أزمان غابرة سحيقة في البعد .

والمنصف في الحكم على الأشياء والنفسيات والحوادث لا يتوانى لحظة عن أن يقرر في ثقة وقوة بأن هذه الديانة بمبادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم الموازم للإنسانية في مرحلتها تلك . وكانت تتفق مع طريق تطورها وسيرها نحو الرقي والنهــررض لأن المسيحية جاءت وقد سبق مجيئها مذاهب عديدة للفلسفة ، وتشريعات قانونية في غاية من الاجتهاد تنظم حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم نحو أنفسهم ونحو الدولة ثم ما بينهم بعد ذلك من علاقات .

نعم جاءت المسيحية فوجدت العالم لا تنقصه تنظيم وسائله المادية التي برع فيها واجتهد وجدد مثل ما تنقصه بواعث الروحانية التي كان ضاربا بينها وبينها سدا منيعا وحائلا لا يمكن أن يقتحم وإن كان يلوح له أنه في حاجة شديدة ملحة إليها فأنجحت بكل قواها إلى إحياء المبادئ الروحية في الإنسان، وحاولت بكل ما تستطيع من وسائل أن تقيم دعائم الناموس وأسس الدعوة الإلهية على قواعد صحيحة ، وأن تكيف ذلك كله بما كان يتفق وطبيعة الأشياء لأن . التغالى والاسراف في المادية يستتبع حتما التغالى والاسراف في الروحية لمتلاقيا في النهاية مع بعض ويسيرا نحو الغاية جنبها إلى جنب .

وهكذا جاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة الإنسانية من ناحيتها الطبيعية فكانت كما قلت ثورة على قوانينها الأخلاقية وما اصطنعت له لنفسها من تقاليد وعادات كلها ترمى إلى تحبيد شريعة الغابة حيث كل شيء للقوى ولا شيء للضعيف حتى أننا نجد القانون الروماني وإن كان من غير شك قد أخذ بيد الإنسانية إلى الأمام وقد عمل على وجود شيء من العدالة وتنظيم الحقوق والواجبات بين الناس بعضهم بعضا إلا أنه كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة أخرى وكان يشرع الاستعمار والاستعباد ولم يكن يؤمن بالتساوى بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى .

فلما جاءت المسيحية لا تقرر هذا الوضع وتؤمن بالتساوى في الحقوق والواجبات وفي كل شيء آخر حدث بينهما وبين هذا القانون اصطدام أدى إلى انكشافه .

والخلاصة التي نخرج بها من دراستنا للديانة المسيحية أنها نشأت في أول أمرها ضئيلة نحيلة اعتنقها أفراد معدودون من اليهود ولما توالى عليهم الاضطهادات في ديارهم هاجروا فريق منهم إلى الاسكندرية حيث اتصلوا بمدرستها الشهيرة فتأثروا بها وأخذوا عنها وكونوا لهم فلسفة خاصة وذهب بعضهم الآخر إلى روما حيث أخذوا يعملون على نشر الدعوة التي كانت قاصرة على اليهود في أول الأمر حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى دخولها بنفس الامتيازات والحقوق التي لليهود وقد اعتنقها من الرومانيين أناس معدودون أيضا كانت تنزل عليهم الاضطهادات المروعة والتعذيب الوحشي كأبشع ما يتصور الانسان ولمكن ذلك لم يمنع هذه الديانة من الانتشار ولم يفت في عضد المؤمنين بها فظنوا على عقولهم متمسكين بها داعين غيرهم من الناس إلى الايمان بها حتى أصبحت السائدة الساحقة من الرومانيين من المؤمنين بها العاملين لها بما حمل الامبراطور د اغسططين ، إلى أن يعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وحمل الناس على الاعتقاد والإيمان بها بالحديد والنار وبوسائل غاية في الوحشية والقسوة . ومن هنا تلونت المسيحية بلون جديد ، وأخذت تنطبع فيها كل ظاهرة من ظواهر الاجتماع والتفكير الروماني وحاولت ، أن تلون أصول القانون الروماني بلونها وقد نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنها اصطدمت به آخر الأمر وقضت عليه قضاء لا تسامح فيه .

وإذا كانت الديانة اليهودية بل حتى الديانات الوضعية لم تخل من النظام والكهنوت ، إلا أن المسيحية قد أخذت بهذا النظام وأسرفت في الأخذ به غاية الاسراف حتى أن البابا كان يلقب نفسه بأنه يمثل الله على الأرض وكان بيده منح الثواب والعقاب وأعطى لنفسه السلطة على كل شيء لا يختص بالدين وحده وإنما يختص بكل الأمور الدنيوية أيضا وأضحت الديانة المسيحية التي كانت مسالمة بطبيعتها رحيمة في نفسها . أضحت كنظام دكتاتوري قاس لا يعرف هوادة ولا رحمة ولا رفقا ، وأصبح البابا وحاشيته أشبه بالقيصرة في ترفهم وتكاليفهم الشديد على اقتناء القصور والضياع وارتجاع المال من أي سبيل وذلك

لاشباع شهواتهم النهممة الجائرة مخالفين في ذلك قول المسيح عليه السلام : الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات . وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله .

وظل الحال على ذلك ولم تستطع المسيحية أن تخفف بعض الشيء من تعنت البابا وقسيسيه إلا بعد أن طالب البروتستانت ، بإبطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الآخروية وإبطال عبادة الصور .

ونحب قبل أن نترك موضوع الديانة المسيحية لننتقل بك إلى دراسة الاسلام أن نقرئك ما قاله « الشهر ستاني » في كتابه الملل والنحل عنها قال :-

« النصراني أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو المبعوث حقا بعد موسى عليه السلام المبشر به في التوراة وكانت له آيات ظاهرة وبيّنات زاهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ونطقه من غير تعليم سالف وجميع الأنبياء بلاغ وحيمهم أربعون سنة وقد أوحى إليه انطلاقا في المهدي وأوحى إليه ابلأغا عند الثلاثين وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ولما رفع إلى السماء اختلف الخواريون وغيرهم فيه وإنما اختلفاتهم تعود إلى أمرين أحدهما كيفية نزوله واتصاله بأمه وتجمد الكلمة والثاني كيفية صعوده واتصاله باللائكة وتوحيده الكلمة أما الأول فقضوا بتجسد الكلمة ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش في الشمعة ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني ، ومنهم من قال : تضرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : ما زجت الكلمة جسد المسيح مما زجة لللبن الماء وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة : قالوا الباري تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والحجمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالاقنومية ويعنون بالاقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم والادب والابن وروح القدس وإنما العلم تضرع وتجسد دون سائر الأقانيم وقالوا في الصعود أنه قتل وصلب . قتله

اليهود حسداً وبغياً وانكاراً لنبوته ودرجته . ولكن القتل ما ورد على الجزء
 اللاهوتي وإنما ورد على الجزء الناسوتي : قالوا وكما الشخص الإنسانى فى ثلاثة
 أشياء نبوة وإمامة وملكية ، وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الحاصل
 الثلاث أو ببعضها والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الإبن الوحيد فلا
 نظير له ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء وهو الذى به غفر زلة آدم عليه السلام
 وهو الذى بحاسب الخلق . ولهم فى النزول خلاف فمنهم من يقول ينزل قبل يوم
 القيامة . كما قال أهل الاسلام ، ومنهم من يقول لا نزول له إلا يوم الحساب .
 وهو بعد أن قتل وصلب نزل ورأى شخصه شمعون الصفا فكلمه وأوصى
 إليه ثم فارق الدنيا وصعد إلى السماء وكان وصية شمعون الصفا وهو أفضل
 الحواريين عليها وزهدا وأدبا غير أن (فولوس شوش) أمره وصير نفسه
 شريكاً له وغير أوضاع عليه وخلطه بكلام الفلاسفة ووسوس خاطره .
 ورأيت رسالة « لفولوس » كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان
 عيسى عليه السلام كما كان سائر الأنبياء وليس كذلك بل إنما مثله مثل
 « ملكين داق » وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه
 العشور فكان يسارك على إبراهيم ويمسح رأسه ، ومن العجب أنه نقل فى
 الأناجيل أن الرب تعالى قال إنك أنت الوحيد ومن كان وحيداً كيف يمثل
 بواحد من البشر ثم إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم
 جمعاً للإنجيل وهم « متى . ولوقا . ومارقوس . ويوحنا » وخاتمة الإنجيل متى أنه قال
 « إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبى إليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم باسم الرب
 والابن وروح القدس » وفاتحة إنجيل يوحنا « على القديم الأزلى قد كانت
 الكلمة وهو ذا الكلمة . كانت عند الله والله هو كان الكلمة . وكل
 كان بيده » انتهى

وكتب ابن خلدون فى مقدمته وصفنا للمسيحيين نعتقد أن فى قراءته وفى
 الإلمام به بعض الفائدة ونحن نشبه لك فيما يلى :-
 جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به « أى اليهود » من

الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراهيم الآكام والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الحواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى مملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيرودس ملك اليهود الذي انتزع لذلك من بني حشمناي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكتب هيرودس ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الحواريون شيعة ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي أنزل على عيسى صاوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فسكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريين الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد السكتب التي يجب قبولها والعمل بها فن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقايين لابن كريوز ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق وبزامير داود عليه السلام كتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبؤات الانبياء السكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شريعة عيسى صاوات الله عليه والمتلقاه من الحواريين نسخ الانجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الابريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبوغالمسيس

وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي واختلاف بشأن القياصرة في الأخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والتمسك عليهم بالقتل والبغى إلى أن جاء قسطنطين وأخذ بها واستمروا عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطررك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعده من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أى نائب البطررك ويسمون الإمام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومه يقيم بها دين النصرانية إلى أن قتله نيرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام بخلافته في كرسي رومة آريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة فيها وجعل معه اثني عشر قساً على أنه إذا مات البطرك يكون واحد من الاثني عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا ببنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأى واحد في الدين فسكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلاً يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرك القائم بالدين لا يرجع في تعيينه إلى اجتهد الأساقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وأبطلوا ذلك الرأى وإنما يقدم عن بلاء واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد ذلك في تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة وكان الأساقفة يدعون البطرك بالأب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم في أعصار متطاولة يقال آخرها بطركية هرقل بإسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرك عن الأسقف في التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبوالآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على زعم جرجيس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم

عندهم وهو كرسى بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه حتى الآن ثم
اختلفت النصراني في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف
وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلفت الحال في العصور
في ظاهري فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي نرقمهم ولا يلتفتون
إلى غيرها وهم الماسكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطرك
فبطرك رومة اليوم المسمى البابا على رأى الماسكية ورومة للإفرنجية وماسكهم
قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأى اليعقوبية وهو ساكن بين
ظوائفهم والحديثة يدعون دينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في
إقامة دينهم هنالك وأختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة
بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدين من أسفل والنطق بها
مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الإفرنجية أنه يحضهم على الانقياد
لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجاً من افتراق الكلمة
وبتجربى به العصية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه
الانبرذور (أى الامبراطور) انتهى

هذا الذى قدمناه لك دراسة خفيفة عن الديانتين اليهودية والمسيحية
نعترف أننا لم نسهب في دارستها كل الاسهاب وإن كنا قد أبرزنا لك مشخصاتها
والظروف التي أحاطت بها . والبواعث التي كمنّت فيها وما اكتتفها من عوامل
الانحراف والفسوق عن طريقها الطبيعي ولم يبق إلا أن نأخذ في دراسة
الديانة الاسلامية .

والاسلام دين عام وتشريع سماوى اعتمد على المنطق وعلى مخاطبة العقل
وكان في حقيقته عبقرىا ولبقاً لأنه لم يقتصر على التشريع فقط لأمة محدودة
كالديانة اليهودية ، ولم يحفل إلا بالناحية الروحية فقط ولم يخاطب العاطفة
والقلب والضمير وحدهم كالديانة المسيحية وإنما جمع بين الناحيتين جميعاً وأراد
أن يتمشى مع المرحلة التي بلغها الانسانية : فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول
أمره جاء داعياً الانسانية جمعاء إليه وإلى الانضواء تحت لوائه . وأنه جاء عاملاً

على التعاون والائتلاف الانساني بطريقة عملية غاية في الروعة والكمال فالتساوى بين الناس جميعا أهم عنصر فيه وأعظم أساس ابتنت عليه مبادئه يقول القرآن الكريم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ويقول رسول الاسلام ه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ه

وفي الواقع إن الدين الاسلامي لو قارناه بمقارنة دقيقة بالديانتين السابقتين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشري لسكان ذلك كاثيا وحده على صدقه واعجازه واحتياج الانسانية إليه فالدين المسيحي قد أوجد نوعا من التعاون الانساني ولكنه كان ضئيلا وغير عملي ؛ ولا يتفق مع الادراك والوعى الانساني لوجود النظام السكهنوتي فيه والدين المسيحي قد جاء منسكرا المادة داعيا إلى الروح عاملا على الزهد والقناعة وعاشم الاخذ بأي سبب من الاسباب التي فيها حرص على الدنيا وعمل لها وتنعم بها - وإن كنا قد علمنا ذلك بأنه كان تلاجا طبيعيا لما كان يسيطر على طبيعة العالم حينذاك من حب للمادة وتكالب عليها واسراف فيها - غير أن الاسلام جاء منسكرا لهذا النظام السكهنوتي كل الانكار فالقرآن الكريم يخاطب النبي بقوله (انك لا تهدي من احببت واسكن الله يهدي من يشاء) والرسول الكريم يخاطب أهله وذويه بقوله (يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا) ثم إن الإسلام لم يدع إلى الزهد والقناعة وانكار الحياة الدنيا كما كان الشأن في المسيحية فقد قال القرآن الكريم (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مغارم كثيرة وسعة) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وقال الرسول عليه السلام واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ه

وعن أنس رضي الله عنه قال :-

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كانوا بينهم
ثلاثة رهط ، أي عدوها قليلة ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم فقد
غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً .
وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا
أتزوج أبداً . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أأنتم الذين
قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر
وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني .

ثم إن الطبيعة التي اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة
والقسرة والآثرة والأخذ بأساليب ذلك والاسرار والتغالي فيه بينما جاءت
الديانة المسيحية على عكس ذلك فقد دعت إلى المسالمة والرحمة والنساع والسعي
للادنيا وإنما الآخرة . وترك الحقوق متى كان في الحصول عليها قسرة وشدة وخصاما
أما الاسلام فقد جاء وسطاً معتدلاً متفقاً مع طبيعة النفوس ، ومع
طبيعة الأشياء والحوادث فلم يستعمل القوة إلا في المواضع التي تحتاج إلى القوة .
ولم يكن شديداً صارماً إلا في كل ما هو حق وواجب فمقانونه الأخلاقي قائم
على ما يتفق وسيكولوجية النفوس وسيكولوجية الحوادث ، وظروف الزمان
والمكان . فقد أشاد بمبدأ القوة في الأشياء والحوادث التي تحتاج في علاجها
إلى شدة وصرامة وقد حث الرفق والنساع والصفح في الظروف التي توجب
ذلك وأحياناً خير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو إذا لم يكن في ضياع
حقه مضرة لنفسه أو للمجتمع . بل انه وقف أحياناً بين الانسان وبين أن
يفرط في ماله حتى ولو كان للصدقة إذا كان غير فائض عليه ومما يحتاجه لنفسه
أو لأولاده فلقد روى أنه حينما كان سعد بن أبي وقاص مريضاً عاده النبي
صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله . أو بماله كله نقرباً إلى
الله فسأله النبي عما ترك لولده فقال سعد هم أغنياء فلم يقبل النبي أن يتصدق بغير

العشر وما زال يراجعهم حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثالث وحرّم الزيادة فوق ذلك وقال (الثالث والثالث كثير إنك إن وتذرو رثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)

وهكذا كما ترى جاء الاسلام بعد أن ظهرت له ضرورة عاجلة في تصحيح العقيدة الالهية وفي تكييف التعاليم السماوية ، وفيما ينبغي أن يتفق مع التطور الانساني والتقدم البشرى فأخذ يعمل في غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها ولم يجعل حرائل أو شروطاً تحول بين انسان - كائناً من كان - وبين أن يكون مسلماً إلا أن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً بل إنه شجع غير المسلمين على الدخول فيه وحببه إليهم فجعل لهم نصيباً في الزكاة حيث قال الله تعالى : « والمؤلفة قلوبهم »

بينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببني إسرائيل وخدمهم والمسيحية في أول أمرها نزات لليهود فقط ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود حتى دعا بواس الرسول غيرهم من كافة الناس للانضمام وراء تحته بنفس الحقوق والامتيازات التي لهم كما ذكرنا ذلك قبلاً .

والشيء الذي نحب أن يسترعى اهتمامك بعد ذلك وأن تخرج به من موضوع هذه المقارنة هو أن الاسلام جاء فوجد العالم تسيطر عليه حالة من الفوضى والتفكك لا مثيل لها ، وأنه في حاجة إلى موقف يوقفه بما هو سادر فيه من حيرة وضلال ، ومن وجود نظام الطبقات الذي كان آخذاً بخناق عاملاً على تقويض كل القيم الانسانية فيه .

ولقد رأينا أن المسيحية لم تأت بتشريعات سماوية تكون قانوناً للناس يسرون على ضرائه ؛ وإنما انتهى بها الأمر إلى أن تحارب التشريعات اليونانية والرومانية التي ورثتها عن روما بعد سيادة المسيحية عليها وأن تقف في النهاية حجر عثرة في سبيل تطورها ونضجها لذلك كان العالم في ميسس الحاجة إلى ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتتمشى مع الناموس الطبيعي للحياة حيث المادية وحدها غير قادرة على السير وحيث الروحانية بمفردها غير مستطاعة

الحيش. وإنما لابد أن يجتمع الاثنان ويمتزجا ويكتيفا بعضهما بعضا لأن هذا نظام الكون وقانون حياة الكائنات ...

ولقد نزل الاسلام على محمد بن عبد الله وهو رأى لا يقرأ ولا يكتب فكان أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى وسما بها في فترة قصيرة إلى مكانة ممتازة من الرقي والسمو لم تكن تحلم ببلوغها في عدة قرون وكون أعظم امبراطورية ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلا في سرعة نموها واتلافها وارتباطها وما سادها من عدل ومساواة وما كن فيها من حيوية وازدهار .

جاء الاسلام خاتماً للدعوات الالهية فكان لابد أن تتوفر في طبيعته المرونة التي تتفق والتطور الزمني والرقي البشري فعول في نشر دعوته وهضمها والايان بها على العقل فكان يخاطبه في كل أمر من أموره ويحكمه في كل شأن من شؤنه حتى أن الرسول عليه السلام يقول (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له) وأمر بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يتفق مع العقل وفي هذا أكبر دليل على تقديره للعقل ، وعدم محاصمته للفلسفة أو العلم اللذين هما أثر من آثار الاجتهاد العقلي . بل إن في هذا أكبر دليل على أنه ترك للعقل أن يؤول أحكامه وأوامره ونواهيه ، وأن يلونها حسب ما يتفق وطبيعة الأشياء وظروف الزمان والمكان .

قال الأستاذ الامام محمد عبده

« أجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان طريق النسل بصفة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في حله ، والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل ،

وفي الواقع اننا لو تعمقنا في البحث في أحكام القرآن وفيما أتى به من أوامر ونواهي نجد أنه في كل ذلك كان يرمى إلى تكوين قانون أخلاقي غاية في الرقي والكمال . لأن العالم من ناحية الرصيد الخلق كان مفلساً كل الافلاس ، ولم يكن

تتفحصه الفلسفة التي برع فيها سقراط وتليذاه افلاطون وارسططاليس، ولم يكن
تتفحصه نظريات القانون المادى وتنظيم العلاقات ومن الحقوق والواجبات التي
اصطنعها علماء القانون الروماني، وإنما كانت هذه الفلسفة وهذا القانون في
احتياج شديد إلى تطعيم قسوى بالنزاحى الخلقية فأرسطو الذى وضع كتاب
(الأخلاق) كان يبرر الاغارة على الأمم المثيرة واستعبادها لأن الله لم يخلق
الناس سواسية وإنما خلق بعضهم أسياداً (كاليونانيين فى رأى أرسططاليس)
وبعضهم الآخر عبيداً كغير اليونانيين من الأمم والشعوب وكان القانون
الرومانى أيضاً يشجع نظام الطبقات ويشرع الاستعمار لا للنهوض بالأمم
المستعمرة، وإنما للنساط عليها واستنزاف اقتصادياتها.

فالعالم إذاً كان فى حاجة ملحة إلى نظم وقوانين تسيطر عليها الناحية الخلقية
لجاء الدين الإسلامى حاملاً إليه هذه الرسالة مؤدياً له تلك الأهداف فيما رسمه
ونادى به القرآن من قواعد ومبادئ وفيما تمثل به الرسول وصحابته من أخلاق
وقاموا به من أعمال فالقرآن الكريم يخاطب النبى بقوله (وإناك لعلى خاق
عظيم) والرسول الكريم يقول (الناس سواسية كأسنان المشط)

ولو درسنا حياته وتبعنا أعماله كلمافإننا نجد لها صفحة رائعة للخلاق النبيل
القومى من الوفاء والصدق والحب والإيثار التى تطفح بها كتب السيرة النبوية فلم
يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه أعطى لنفسه امتيازاً أو سلطة فى أى شىء بل
إنه كان يشاور الصحابة فى كل ما يطرأ عليهم من أمور الدنيا حيث يقول له الله
(وشاورهم فى الأمر) وكثيراً ما كان رأى غيره مخالفاً رأيه فينزل دلى رأيهم
فالبساطة والتساوى والإيثار كانت من أظرف صفات النبى عليه السلام .

يقول المفكر الأنجليزى (بوسورث سميث) فى كتابه محمد والدين
المحمدى ، ترجمة الأستاذ عز الدين فرأج

« إن أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات
فأياً شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ولم ينسب أحد منهم
إليه معجزة من المعجزات بل إن محمداً نفسه حرص دائماً على أن يشكر قدرته

على اتيانها أى دليل إذا أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسرقه إنسان
لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به إلا أنه نبي مرسل من عند الله .
وإذا كان لاى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحي من السماء فهو محمد لقد كانت له
كل السلطات دون أن يكون لديه أدواتها . . كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة
بروح المودة والولاء وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلاً مقتصداً فلم يكن
يعوزد الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل
المدى ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعد فتحها ولكنك أصدر عفواً عاماً
ملقياً بذكرىات الماضى بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان
وعامل أحد الأعداء له بالأكرام والسخاء ولم تكن السماحة التى أبداهها العبد الله
ابن أبى وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهروا وهم الذين ناصبوه
العداء سنين طوالاً وامتنعوا عن الدخول فى طاعته .

وتحدث الكاتب الأمريكى (واشنجتون أرفنج) عن أخلاق النبي فقال :
« لقد احتفظ محمد وهو فى أوج سلطانه ببسالة الخلق التى عرفت عنه فى كل
أدوار حياته وكان يسكره إذا دخل مكاناً أن تؤدى له تحية غير عادية وكان لا
مليحاً له فى أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله وعندما وقف على سرير ابنه
إبراهيم ساعة احتضاره كان التسليم لإرادة الله واضحاً فى سلوكه بينما كان يعانى
أقصى ألوان الحزن وكان عزاءه أنه سيلتقى به ثانية يوماً من الأيام فى جنّة
الخلد وعندما حانت ساعة وفاة محمد كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته
وكانت كلماته التى جاءت على شفّتيه تمنيه من أن يدخل ملكوت الله مع من
سبقه من الأنبياء .

ولقد ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعیدی فى كتابه (القضايا الكبرى فى
الاسلام) أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوماً فنصحهم ثم قال لهم (ألا إني
والله ما أرسلت عنى إلى إلیکم لیضربوا أبشارکم ولا لیأخذوا أموالکم ولکن
أرسلتهم إلیکم لیعلموكم دينکم وسننکم فمن فعل به سوى ذلك فأیرفعه إلى فوالذى
نفسى بيده إذا لأقصنه !

فوثب عمرو بن العاص فقال :-

يا أمير المؤمنين : أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه ؟

فقال عمر : أى والذى نفسى عمر يده . إذن لأقصنه منه ، أنى لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلهم ولا تمنعوا حقهم فتكفروهم . ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ثم تحدث الأستاذ الصعیدی عن قضية قائد مع جنده فترجم فيها عن روح الإسلام وعدله وبين ما اتصف به من مثل عليا في المساواة بهذا الحكم وبهذا المثل الذى ضرب به عمر بن الخطاب للناس ، والذى لم ير العالم له مثيلا في تاريخ الحضرة البشرية ولن يرى له مثيلا في المدينيات الكبرى التى تزعم الرقى بالانسانية والارتفاع بها إلى مكانة من السمو والامتياز .

قال الأستاذ عبد المتعال الصعیدی (كان مع أبى موسى الأشعري فى بعض الفتوح رجل ذو صوت ونكاية فى العدو فغنموا مغنا ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه فأبى أن يقبله إلا جميعا فغضب منه أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره .

فجمع الرجل شعره ثم ترحل إلى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ثم دخل عليه فأدخل يده فاستخرج شعره . ثم ضرب به صدر عمر ، فقال : أما والله لولا . . فقال عمر : صدق ، لولا النار . .

ثم ذكر الرجل قصته مع أبى موسى فقال : يا أمير المؤمنين . إني كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وقد أعطاني أبو موسى بعض سهمي ، فأبيت إلا أن أخذه جميعا فضربني عشرين سوطا ، وحلق رأسي وهو يرى ألا يقتص منه .

فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلى من جميع ما أفاء الله على .

ثم كتب عمر إلى أبى موسى :

سلام عليكم - أما بعد - فإن فلانا أخبرني بما كان منك فإن كنت فعلت ذلك في ما لا من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ما لا من الناس حتى يقتص منك وإن كنت فعلت ذلك في خلا من الناس فاقعد له في خلا من الناس حتى يقتص منك ثم قدم الرجل على أبي موسى ، فقال له الناس . اعف عنه فقال الرجل . لا والله ، لا أدعه لأحد من الناس .

فلما قعد أبو موسى ليقتص الرجل منه ؛ رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال اللهم قد عفوت عنه) انتهى

ثم شيء آخر من عدالة الاسلام أحب أن أعرضه عليك وهو - أن جبلة ابن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم كان يطوف بالكعبة في موسم الحج فوطىء رجل من فزارة طرف إزاره فأنحل الازار فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزاري فشمكاه إلى عمر ولما لم يقبل العفو عنه أراد عمر أن يهشم أنف جبلة تنفيذاً للقانون الاسلامي (ولكم في القصص احصاء) فقال جبلة كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ فأجاب عمر :

إن الاسلام جمعك وإياه وسأوى بينكما فلمست تفضله بشيء إلا بالتقوى فلم يحتمل ذلك جبلة واستنصر .

ولا أحب أن أتركك دون أن أقدم لك شيئاً آخر عن سماحة عمر وتواضعه مع نفسه ، وعمله على ما فيه خير الاسلام وصالح المسلمين . وهذه الأخلاق النبيلة الرفيعة التي أخذها عن محمد ، والتي أكتسبها الاسلام إياه .

فقد نقل الأستاذ العبادي في كتابه (صور من التاريخ الاسلامي) عن الطبري (أنه لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستنصر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى حين انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقي البشير سألته من أين فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثني . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستنصره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فها أخبرني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر

يقول : لا عليك يا أخى ا

ثم تابع الأستاذ العبادى كلامه فقال .-

« ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قسام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفارس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنسائها ووطئته بمنسما نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : «أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ،

أرأيت إذا ما صنعه الاسلام بهؤلاء الناس البدو الرعاة . كيف جعلهم سادة العالم وقادته ، ومثله الأعلى فى الأخلاق ، والعدل ، والمساواة ، وفى كل صفة من صفات التحضر البشرى ، والرقى الانسانى .

أرأيت إذا أن العالم وهو سادر فى فقره الأخلاقى ، وفى امتنانه للكرامة البشرية كان فى حاجة قصوى إلى رسالة الاسلام الذى جاء بأعظم قانون أخلاقى لم يتخيل أحد من الفلاسفة والمفكرين ما يفوقه فى السمو والارتفاع حتى الآن ، وأنه رد للإنسان كرامته وشعره بعزته بتساوى أفراد صغيرهم وكبيرهم فى الحقوق والواجبات ، وفى أمور دينهم ودينياهم حتى أن النبى وصحابته كانوا يعاملون مراليهم معهم على قدم المساواة ، بل كانوا يميزونهم عن أنفسهم فى أكثرهم الأحرار .

فزيد بن حارثة لم يرغب أن يترك النبى ليهذه مع أبيه إلى مكة لما خيره النبى بالذهاب مع أبيه أو العيش معه فأثر العيش مع النبى وذلك لما لقيه من معاملة حسنة ، ومن رعاية تفوق عاطفة الأبوة ومن مساواة له مع نفسه ، ومع صحابته حتى أنه قلد ابنه أسامة قيادة جيش المسلمين إلى الشام وفيه من عظماء قریش ، ومن أكابر الصحابة العدد الوفير .

وعمر بن الخطاب لما ذهب ليعقد معاهدة مع أهل الشام استصحب معه قيقما له فكان يركب هو مرحلة ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خافه

ولما وصل إلى دمشق كان الدور في الركوب لسلامه فدخل دمشق على هذه الصورة ولم يرف في ذلك عيباً ولا غضاضة .

وعلى بن أبي طالب رضى الله عنه اشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمناً من الآخر فأعطى لرقيقه الأثمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له رقيقة (أنت يامولاي أحق بهذا الثوب) فقال له (كلا إنك شاب وأما أنا فقد هرمت)

وربما يسألنا سائل : ما بال الاسلام وهذه أخلاقه ومبادئه في المساواة والايثار لم يبلغ الرق ، ولم يحرمه بل أقره ؟

وجوابنا : أنه لا يعاب على الاسلام عدم إلغائه الرق صراحة وذلك لأنه جاء فوجده عنصراً طبيعياً من مقومات حياة العالم ودعامة قوية من دعائم اقتصادياته ، ولأن الديانتين اللتين سبقته وهى اليهودية والمسيحية لم تتعرض لإحداهما للأحد منه بله إلغائه صراحة أو تنويعها .

بل لأنه جاء فوجد الفلسفة الأغريقية ، والحضارة الرومانية وهى التى استمد منها علماء أوربا ومفكروها عناصر نهضتهم وتحضرهم الحالى قد أقرته ووضعت له قواعد باعتباره أساساً من أسس الاقتصاد ، ومن أسس الاجتماع

ولكننا نجد الاسلام - هذا الدين الذى كما قلنا جاء يقرر الأخلاق ويعمل على النهوض بالكرامة البشرية - يسوى بين العبد وسيدده أمام الدين ، وفى كثير من الحقوق والواجبات بل إن القرآن قد جعل منزلة الرقيق بالنسبة لنظرة الانسان كنزلة والديه وذوى قرباه فقال تعالى (وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين وما ملكت أيمانكم)

وقال عليه الصلاة والسلام (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس)

ثم إن الاسلام سعى إلى التخفيف منه ، والعمل على زواله شيئاً فشيئاً بخلق أبواب كثيرة يتلاشى فيها كالتكفير عن سيئة بعقوبة مؤمنة وبمساعدة من يسعى لفك رقبة بإعطائه حصنة وحقاً فى الزكاة التى أوجبها على المسلمين وبالإنابة والجزاء الحسن لكل من يعمل على إطلاق حرية عبد رقيق وكالمض

على الزواج بالإماء وبمجرد ولادتهم يصبحون أحراراً . . . فم
حقيقة لم يبلغ الرق صراحة ، لأن العقول سواء أكانت عقول السادة أو الرق
لم تكن تهمضم هذه الدعوة ؛ ولأن نفوس الرقيق وهى التى استثمرأت حية
الرق واستعذبتها وألفتها وأصبحت غريزة فيها ورثتها عن أجيال بعد أجيال
ومن قرون تلو قرون . . . هذه النفوس لم تكن قد تهيأت لتذوق حياة تخال
ما ألفتها من حياة ، ولم يكن قد توفر عندها التكافؤ للعمل فى حرية واستقلال
ولذلك نرى الاسلام قد حرم الرق الذى يأتى عن طريق النخاسين بالقضاء
والتصيد والاختطاف .

والخلاصة التى نستطيع أن نخرج بها من موضوع دراستنا لمكانة الاسلام
الديانات أنه الدين الذى جاء متمشياً مع العقل فى تطوره ونهضاته ، وأنه الدين
الذى جاء يقرر الأخلاق ويعمل للكرامة البشرية التى تلزمها الحضارات
والمدينات الكبرى .

